

أمثلة من الترجمة

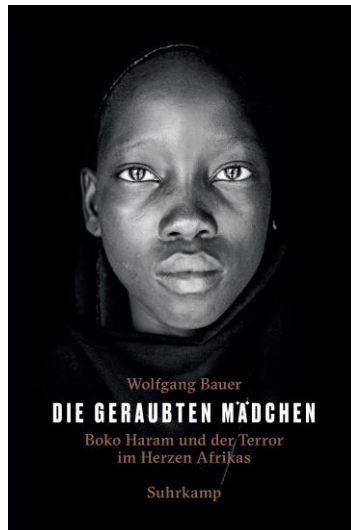
Wolfgang Bauer
Die geraubten Mädchen – Boko Haram und der Terror im
Herzen Afrikas
Fotos von Andy Spyra

Suhrkamp Verlag, Berlin 2016
ISBN 978-3-518-42538-1

صفحات 26-19 & 10-7

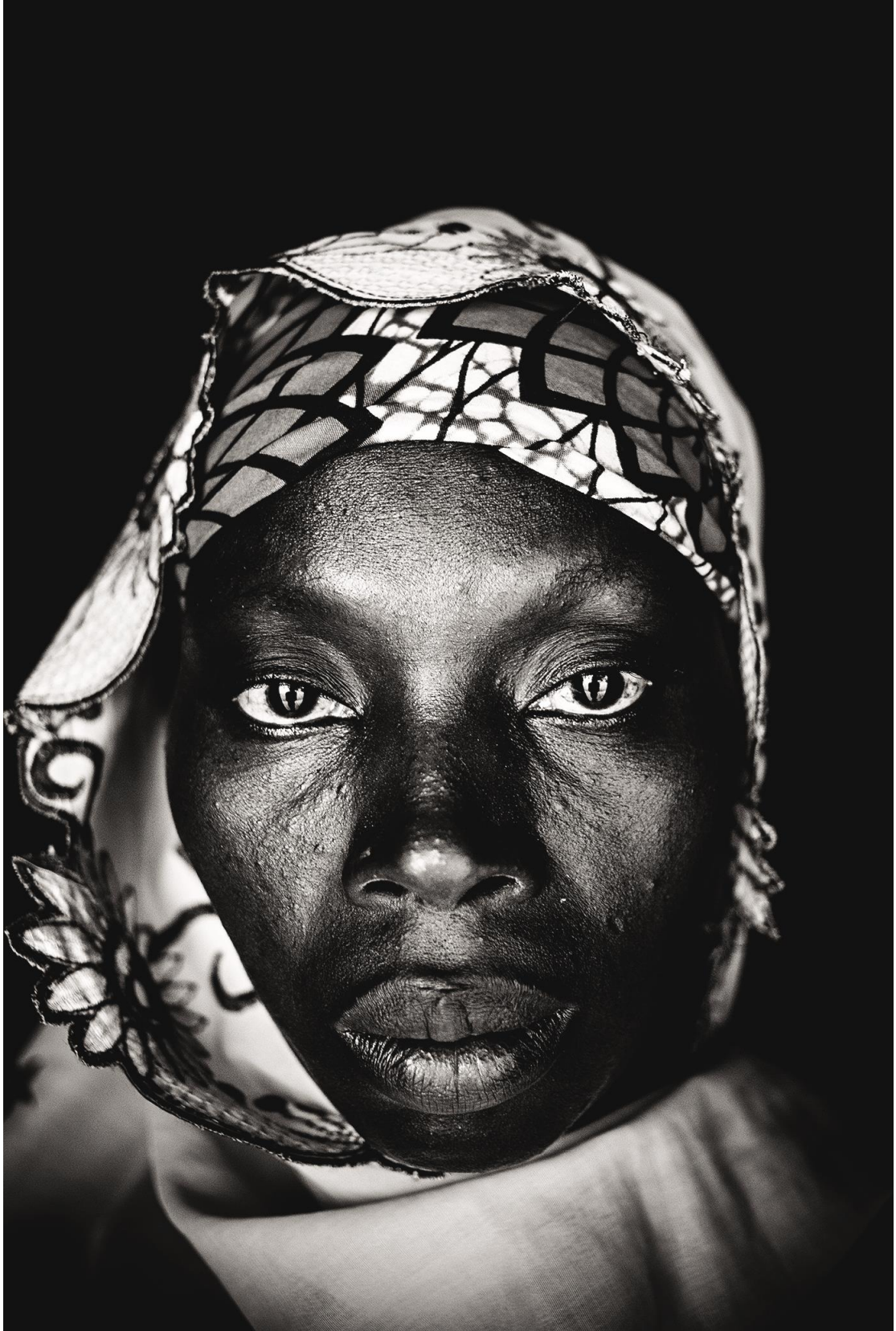
فولفجانج باور
المختطفات: بوكو حرام والإرهاب في قلب أفريقيا
فوتوغرافيا آندي سبيرا

ترجمة: علا عادل



الغابة التي باتت تسبب الذعر لدولةٍ حديثةٍ مُعتمةٍ ويكاد التغول فيها غير ممكن. يظن كثير من أهل نيجيريا أن من يطأها لن يجد طريقه للخروج منها أبدًا. فهم يقولون أن هناك لعنة من العصور القديمة قد حلت عليها. فالغابة إذاً قديمة لدرجة أن أحدًا لا يستطيع أن يؤكد معنى اسمها الأصلي. فغابة سامبيسا هي الأخيرة من نوعها. إذ لم يتبق سواها من بين كل الغابات الكبرى في شمالي شرق نيجيريا. وأشجار هذه الغابة ليس بها أي شيء سامق. فلا يتجاوز ارتفاعها بضع أمتار قليلة وهي أشجار معوجة ومتداخلة في بعضها. أدغالها مليئة بالأشواك الحادة مثل المخالب. وتيجان أشجارها تعيق التطلع للسماء ونادرًا ما تنجح الشمس في النفاذ إلى داخلها وصولاً للأرض. كما أن تربتها ليست ثابتة. والأنهار الضخمة التي تنبع من جبال ماندرا لا تجري لتصب في البحر، بل تنتهي في مستنقعاتها. يوجد في هذه الغابة كثير من الحيوانات المتوحشة. إلا أن الإنسان هو أخطر قاطنيها. تحديدًا الرجل.

الطريق الذي يؤدي إلى مكان قريب من الغابة يحمل رسمياً المسمى أ 13. تغطيه أشكال مخروط صخرية رمادية اللون. ما هي إلا مقذوفات لحمم براكين هائلة ثارت قبل آلاف السنين. جلب طريق أ13 التقدم إلى شمالي شرق نيجيريا. حيث شُق في بداية الثمانينيات وفتح المنطقة بوصفه أول شارع للتجارة الحديثة. وهو يؤدي بكثرنا حارتيه من يولا على مسافة أكثر من 350 كيلو متراً حتى باما تقريباً. ولا يستطيع الناس مقاومة إغراء أسفلت هذا الشارع الذي يتمتع بقوة جذب تشبه المغناطيس لذا اصطفت القرى المكونة من منازل مشيدة بالطوب الأحمر والأكوخ الطينية المستديرة بمحاذاته بالكامل. وقد ازدادت تلك المستوطنات حجماً في السنوات الأخيرة. وتُدعى ميتشيكا أو دوهو أو جولاك أو جوبلا. طريق خواطر لأفكار جديدة. آنذاك جلب الطريق للناس الأطباء والأدوية والمعلمين. ولكنه الآن يجلب على سكانه الشقاء والعناء.



سعدية، 38 عامًا، بائعة في السوق، أم لخمسة أطفال ظلت محتجزة لدى بوكو حرام في غابات سامبيسا لمدة تسعة أشهر. أُجبرت على الزواج وكانت تنتظر طفلا وقت إجراء المقابلة.



تالاتو، 14 عامًا، ابنة سعية، كانت وقت اختطافها في الصف الثالث الإعدادي. وقد اقتادتها الجماعة مع أمها وزوجتها هي أيضًا رغماً عنها.

الغابة

تالاتو اسمي جوماي، لكن الجميع يطلقون علي اسم تالاتو لأنني أكبر اخوتي. قيل أن يقتادوني إلى الغابة كنت في الصف الثالث الإعدادي بالمدرسة في دوهو. مادتي الدراسية المفضلة هي الرياضيات. أحب الرياضيات لأنها تنسم بالمنطق. إذا فهمت مرة المنطق وراء إحدى قواعد الرياضيات يمكنك حل جميع المسائل بكل سهولة.

تتخذ إحدى الجماعات الإرهابية مقرها الرئيس في مستنقعات غابة سامبيسا لتختفي بها. تلك الجماعة التي يبدو أنها لا مثيل لها من حيث الوحشية. وهي جماعة حديثة وضاربة في القدم في الوقت نفسه. يسميها العالم "بوكو حرام" (التعليم الغربي حرام). بينما يطلقون هم على أنفسهم مُسمى "جماعة أهل السنة للدعوة والجهاد" وهم يكافحون من أجل تأسيس خلافة في نيجيريا ويتعاونون مع تنظيم القاعدة في مالي والجزائر. كما أنهم أقسموا بالولاء لجماعة الدولة الإسلامية المعروفة باسم داعش. في صيف عام 2014 احتلت جماعة بوكو حرام خمس نيجيريا في غضون أشهر قليلة فقط.

سعدية عندما تصل إلى الغابة يسود الظلام من حولك. ظُلمة شديدة تجعلك تنسى وجود النهار. أنا أم تالاتو. لقد ساقونا نحن الاثنين إلى الغابة. تعين على سائق الشاحنة إشعال الضوء لأن الظُلمة حلت هناك فجأة.-

لم يلحظ الغرب مأساة نيجيريا تلك تقريبًا – حتى بين ليلة الرابع عشر من أبريل وضُحى اليوم الخامس عشر منه. فقد اختطفت قوات بوكو حرام في تلك الليلة مائتين وستة وسبعين (276) تلميذة من مدرسة داخلية بمدينة شيبوك الصغيرة. وأجبروا الفتيات على الصعود إلى شاحنات واقتادوهن إلى الغابة التي لم يتمكن من الهروب منها حتى اليوم. واليوم أصبحت وحشية بوكو حرام تشكل عناوين الصحف الدولية. "أعيدوا فتياتنا" هكذا طالبت فجأة السيدة الشهيرة ميشيل أوباما، زوجة الرئيس الأمريكي. إذ منح هجوم شيبوك ذلك المجهول اسمًا. وحسب البعض أن آلاف النساء أصبحن رهينات الحبس لدى بوكو حرام في غضون ذلك، وأن أغلبهن محتجزات في غابات سامبيسا ومستنقعاتها. ثم عقد زعماء الدول الأوروبية والأفريقية قمة طارئة لإنقاذ الفتيات. ووافقت أنجيلا ميركل على دعم قوة تدخل إفريقية غربية. إلا أن الصدمة لم تدم طويلًا؛ لأن شمالي شرق نيجيريا يبعد كثيرًا عن مراكز السلطة في العالم.

لقد حاورنا من أجل هذا الكتاب نحن المؤلف والمصور الفوتوغرافي والمترجم في يوليو عام 2015 ومرة أخرى في يناير 2016 أكثر من ستين فتاة وسيدة، ممن نجحن في الفرار من معسكر رقيق بوكو حرام. كانت كثير من النساء اللاتي تحدثنا إليهن قد فررن لتوهن قبل أيام قليلة من الغابة. توثق شهادتهن تلك الجرائم التي لا يصدقها عقل وتمنحنا نظرة على الحياة الداخلية لهذا التنظيم. فالأمر هنا يتعلق بجماعة إرهابية قتلت في السنوات الأخيرة أكبر عدد من البشر، ربما أكثر ممن قتلهم تنظيم الدولة الإسلامية داعش. ورغم أنها جماعة قاتلة إلى هذه الدرجة إلا أننا لا نعرف عنها سوى القليل. فكيفية إدارتها ليست واضحة، كذلك ماهية أهدافها طويلة المدى، وليس واضح كذلك من الذي يمولها ولماذا يتخذ تلك القرارات. كما لا تقدم شهادات النساء المُختطفات أجوبة على هذه الأسئلة، لكنها تساعد على الاقتراب من الإجابة. فأقوالهن ليست فقط مصادر معلومات عن بوكو حرام، بل هي أكثر من ذلك: إنها شهادات لذواتهن. لأنها تصحبنا إلى حياتهن التي ظلت غريبة علينا رغم الإنترنت والعولمة. كما تقودنا أقوالهن إلى حوارٍ قراهن التي لا نستطيع أن ننطق أسماءها بطريقة صحيحة والتي لا تظهر إلا على قليل من الخرائط. كم هي مؤلمة أقوال هؤلاء النساء؛ لأنها من بين أسباب أخرى توضح لنا إلى أي مدى نظرتنا لا زالت محدودة، وإلى أي مدى يُعد نموذج إدراكنا ضيق. كم هو ضئيل فهمنا لهذا العالم وهذا الزمن الذي نعتبره "زمننا".

في أوروبا وأمريكا، تلك القارات التي تبدو بعيدة، لم تطلنا كارثة بوكو حرام حتى الآن. وقد اتفق معظم المراقبين على أن هذه الطائفة ستقوم بهجمات في الغرب ذات يوم. لذا ينبغي علينا في الغرب ألا نتجاهل بوكو حرام. إذا ما واصلنا غض الطرف عن دماء الآخرين سرعان ما سنرى دماءنا نحن. إذ لن يحالفنا النجاح في محاربة الإرهاب إلا عندما نستمع إلى ضحاياها: النساء.

سعدية لقد تركوا لي اسمي. لكنهم سلبوني كل شيء آخر. أنا الآن شخص آخر. أشعر بهذا. أنا الآن شخص لا أعرفه. لقد نشأت في قرية دوهو بولاية أداموه الاتحادية. معظم السكان هناك مسيحيون ولكننا مسلمون. لم أذهب إلى المدرسة أبدًا. إذ تعين علي العمل في حقول أبي. بينما كان أبي عامل بناء. لذا كان يغيب كثيرًا عن البيت. وحينما يأتي كان يتشاجر مع أمي طول الوقت. لذا وقع بينهما الطلاق. فنشأت أنا مع أمي. كنت أسعد حالاً وأنا طفلة عما أنا عليه الآن. لم يكن ينقصني شيء وأنا طفلة. كم أفقد تلك البساطة.

تزوجت وأنا في السادسة عشر. وكان هو في الثامنة عشر، شاب وسيم! (تضحك وتطرق برأسها من شدة الخجل). كان يطلق النكات دائماً. كان سائق شاحنة لدى شركة شحن أمتعة في مايدوجوري، عاصمة بورون الاتحادية. كان في طريقه عبر دوهو حينما تعطلت سيارته. هكذا تعارفنا على بعضنا بعض. كنت أقف مع صديقاتي عند نافورة حول الماء حين أتى نحونا، وقال لي: "لم أرك هنا من قبل أبداً!" ثم ضحك. هكذا بدأ الأمر. دام زواجنا اثنا عشرة عاماً، وانتقلنا إلى مايدوجوري حيث مقر شركة الشحن، وهناك استأجر لي متجرًا. كنت أبيع فيه الصابون، وأقراص مرق الدجاج ماجي والصلصة. وتمكنت من الاستعانة بفتاتين للعمل بائعات. كان دخلنا جيد. أما هو فكان يقود شاحنته عبر البلاد وصولاً إلى الجنوب حيث بورت هاركورت. إلا أنه سقط بشاحنته في النهر ولقي حتفه. كان ذلك قبل سبع سنوات.

تقع الغرفة التي قابلنا فيها لأول مرة سعدية ذات الثمانية والثلاثين ربيعاً وابنتها تالاتو ذات الأربعة عشر عاماً، في مبنى سكني صغير بقلب مدينة يولا، عاصمة الولاية النيجيرية أداموه. كان ذلك في منتصف يوليو عام 2015. فالانتتان، الأم والابنة كانا قد اختطفا من قريتهما في أغسطس 2014. ثم تمكننا من الفرار في شهر يونيو 2015. جلسنا على السجاد لأن سعدية وتالاتو لا يشعران بالراحة عند الجلوس على الأرائك أو المقاعد الوثيرة بالغرفة. إذ لا يجلس سوى أصحاب المقام الرفيع على المقاعد في المكان الذي أتيا منه. غطت الشراشف الداكنة النوافذ، بينما كان القیظ خارج البيت يستعر.

تُعد يولا آخر موقع خارجي آمن، إذ تبدأ بعدها منطقة نفوذ بوكو حرام. هنا يبحث الهاربون عن ملاذ ومأوى. وقد تسبب تقدم تلك الطائفة الإرهابية في تحول يولا خلال أشهر قليلة إلى مدينة كبرى تضم ملايين السكان. عند النظر إليها من الطائرة تبدو أشبه بمدينة صغيرة. منازل منخفضة، معظمها من الطفل الطيني تتكون من طابق واحد وتعلوها أسقف من الصفيح بالألوان الأزرق والأحمر والأصفر. تتوسطها ساحة الأسواق الكبرى التي تشكل مرارًا وتكرارًا هدفًا للهجمات بالقنابل وتضم مباني الجامعة والإدارات المحاطة بالأسوار العالية. ليس هناك طريق مههد بالأسفلت سوى محرو المرور الرئيس. لذا يغطي الغبار المدينة. يعلو الغبار الدراجات البخارية الصفراء ثلاثية الإطارات، وسيلة المواصلات الرخيصة لجموع الشعب. كما يغطي الغبار أسطول السيارات الأوروبية المستعملة التي تشق طريقها بعناء. تبدأ منطقة الساحل على بُعد مئات الكيلومترات في الشمال، ولكنه دائمًا ما يبعث عواصفه الرملية إلى يولا. في هذه الأوقات تُعتم رمال الصحراء نور الشمس وتلون اليوم أولاً باللون الأصفر البراق، وسرعان ما يتحول إلى البرتقالي، ومن ثم إلى اللون البني الكئيب. حتى تبدو السماء وكأنها تجثم على المدينة.

يقال أن عدد سكان المدينة بلغ في عام 2010 (340 ألف) ثلاثمائة وأربعون ألف نسمة. إلا أنه لا يستطيع أحد أن يُقدّر عددهم الحالي بشكل واقعي. تتوغل يولا في الأراضي المحيطة بها، حيث تمتد أحياء جديدة وترحف أشبه بالورم السرطاني. فقد ارتفعت بسرعة شديدة عمارات ذات أسوار عالية وتراصت بكثافة إلى جانب بعضها بعضًا. تلك الأبنية التي نادرًا ما تكون كاملة التشطيب لأن السكان ينتقلون إليها بمجرد أن تُشيد أعمدتها وجدرانها. كون كثيرون ثروة من وراء اللاجئين. فقد تضخمت الإيجارات. وازداد عدد العاهرات في المدينة التي تضم كثير من الكنائس، فضلاً عن المساجد الأكثر عددًا. يملأ اللاجئون كل مساحة خاوية بين المنازل، كل شق. من لا ينجح في البقاء هنا في أحد المخيمات الكبرى أو في شقة أحد الأصدقاء نظرًا لنفاد أمواله، ومن يضطر للخروج من هذه المدينة ثانية يعود أدراجه إلى القرى ملفوظًا. حيث يسود الرعب بعد. ومن هناك تأتي النساء والفتيات اللاتي تحدثنا إليهن. من هذا العالم الذي لا نستطيع نحن الصحفيون دخوله.

طوال يومين تحدثنا إلى الأم والابنة، كلاهما سيدتان واثقتان من أنفسهما. كلاهما اختطفتها جماعة بوكو حرام. سعدية حامل في شهرها السادس، حيث تبرز بطنها بوضوح. والطفل هو ابن مُغتصبها.

سعدية طويلة القامة ونحيلة وهشة للغاية. بطريقة نادرة أشبه بالجنية. إلا أن صوتها رخم وأجش. تشعر من وقعه أنها كبيرة في السن ومثل الأرامل. عندما تحكي تمنحك الانطباع بأنها مبتهجة، كما أن عينيها دون تعبير في الأغلب. إنه شهر الصيام لدى المسلمين، رمضان. وسعدية تلتزم به فلا تشرب شيئاً وتصلّي في أوقات مختلفة. وهو ما لا تفعله تالاتو. كما لو كانت تريد أن تستفز أمها، إذ كانت تشرب أمام أعين سعدية وتطيل في ذلك وتستعذبه، في حين تشيح الأخرى ببصرها وهي مجروحة.

دعونا النساء إلى هنا بعد الاستعانة بأشخاص ذوي ثقة لديهن. إذ كُنَّ قد عدن إلى قُراهن مباشرة بعد فرارهن. كل النساء اللاتي تحدثنا إليهن من قبيلة مارجي، وهي قبيلة صغيرة تضم مائتين وخمسين ألف نسمة. كما غيرنا أسماء النساء رغبةً في حمايتهن. كنا نغير المكان الذي نلتقيهن فيه كل يوم، لأن بوكو حرام تختطف دائماً وأبداً أشخاص من قرية يولا أيضاً. وكان هجومهم الأخير على سوق سبق موعد زيارتنا بأسبوعين، وقُتل فيه خمسة وأربعون شخصاً.

كان الشك وانعدام الثقة يسودان في بداية اللقاءات مع النساء. كنا نشعر بالخوف منهن، لأن بوكو حرام تُجبر الفتيات المُختطفات على تفجير أنفسهن في عمليات انتحارية. كل يوم تقريباً كانت نساء شابات في نيجيريا يقتلن أنفسهن وسط ميادين حيوية ومكتظة بالبشر. معظم هؤلاء النساء كُن مُجبرات على ذلك. إلا أن هناك أخريات ممن يقمن بتلك الهجمات عن قناعة. من ذا الذي يستطيع أن يقيس مدى التغيير الذي يطال أحدًا أثناء احتجازه لمدة أشهر طويلة؟ إلى أي مدى تتواءم الحالة النفسية بغرض البقاء على قيد الحياة؟ كما أن النساء اللاتي التقيناهن شعرن أيضاً بالخوف منا لأنهن لم يتمكنّ في البداية من أن يعرفن ما إذ كنا مع بوكو حرام أم ضدهم. فقد ظلت هذه الطائفة تصبغ عالمهم لفترة طويلة.